

وسط الجموع الصاخبة. وعند اجتيازها الطرقات كانت تسمع جميع الأقاويل. عدد قليل من الجموع يراف بتحقير المخلص. والأغلبية تردّد : انظروا إلى أين أوصلته معجزاته، هذا المضلل. وكان الكثير من الذين يعرفون العذراء الكلية القداسة متأثرين بشفقة طبيعية، أما الآخرون فكانوا يقولون لها بقسوة: كم أسأت تربية ولدك. لماذا سمحت له أن يدخل كثيراً من التعاليم الجديدة إلى الشعب؟ ولكن لم يكن شيء يعكّر صفاء سموها ورحمتها. وكانت تصلي من أجل الذين يلومونها ويشتمونها كلّ بدوره.

قادها الملائكة القديسون وسط هذا الصخب وهي ترتجف، إلى منعطف في الشارع، حيث هناك التقت يسوع المسيح. فسجدت له بالحال وعبدته بإجلال يفوق الإجلال المقدم من الخلائق مجتمعة. وعندما نهضت تواجّه الابن والأُمّ بحنان وألم فائق الوصف. واحتفظت في أعماق نفسها المتأثرة طيلة حياتها بصورة ابنها القدوس وهو مضطهد هكذا وبقيت متأثرة من هذا المشهد الحزين كما لو كان بعدُ أمام ناظريها.

وأخيراً وصل سيدنا يسوع المسيح إلى قصر الحاكم يتبعه عدد كبير من مجلس اليهود ومن جمهور لا يُحصى من جميع

ساقوا يسوع موثقاً من دار قيافا إلى قصر بيلاطس وكانت مدينة أورشليم آنذُ تغصّ بالناس الذين أمّوها من جميع النواحي ليحتفلوا بعيد الفصح الكبير فانتشر فيها الصخب والشوارع غصت بجمع غير مدفوع بحب الفضول لرؤية ملك الكون يسير موثقاً. والبعض يقول: الموت للدجال، وآخر يقول: لكنّ شريعته وأعماله لم تكن باطلة. والذين آمنوا به حزنوا حتى النحيب. أما لوسيفورس فكان يضاعف غيظه ويزرع الاضطراب والبلبلة في كل مكان.

كانت الشمس قد أشرقت وأمّ الأحران التي كانت تشاهد كلّ شيء فقررت أن تترك عزلتها وتتبع ابنها الإلهي لتبقى إلى جانبه حتى النفس الأخير. وبينما هي خارجة من عليّة صهيون، اقبل القديس يوحنا يخبرها بالحوادث المؤلمة، لأنه كان يجهل أنها تعلم كلّ شيء برؤيا خاصة. واعترف لها بالخطيئة التي ارتكبتها هو أيضاً بهربه من بستان الزيتون. وبدموع غزيرة سلّم على ألام الإلهية والتمس منها الغفران. ثم سرد لها بعد ذلك جميع ما حصل. وبعد أن استمعت إليه ، كما لو كانت تجهل كل شيء، طلبت منه أن يرافقها مع النسوة القديسات رفيقاتها. فلنسرغ ! قالت لهم : لنذهب ونرى كم سيكلف ولدي حبّه لافتداء البشر وفتح أبواب السماء أمامهم. وبأمر منها شقّ لهل الملائكة الطريق إلى يسوع